قـــراءة في نـص مـــســـرحي

حمـــام دمشـقي فـــي بغـــــــداد

د.خليل الحركاني*

عاد الدكتور جواد الاسدي معانقا خشبة المسرح السوري، تلك الخشبة التي شهدت بروزه وتألقه في عالم المسرح العربي.. تألقه مخرجا دائم القلق لا هم له الا اختصار المسافات نحو القمة الابداعية.. عاد الاسدي بعد غيبة طويلة ليعانق من جديد خشبة مسرح الحمراء الشامي بصالة غاصة بمريدية ومحبيه من جمهور المسرح الشامي الانيق وصاحب الذوق الرفيع.
عاد ليقدم عرضا "ألفه" واخراجه بنفسه معتمدا على طاقات عراقية عربية في ان واحد.
في التمثيل ساهم الفنان العربي السوري فايز قزق والفنان العربي السوري نضال سيجري.
اما تصميم الديكور فكان من ابداع الفنان التشكيلي العراقي المقيم في روما جبر علوان مع الفنان التشكيلي مصمم الديكور زهير العربي.. بينما كان اعداد الموسيقى التصويرية للعرض من نصيب العراقي رعد خلف وتصميم الملابس كان من ابداع سهى حيدر وهي عراقية كما اظن.
وكان الفنان المهندس ماهر هربش العربي السوري مصمم الانارة الدائم ورئيس الطاقم الفني في مسرح الحمراء الشامي.

العرض

يتناول العرض، بتعميم وشمولية واضحتين، الكيفية التي توظفها الشخصية العراقية (العربية) في تفكيرها وسلوكياتها.
اما نقطة انطلاقتها فكانت كما احب مؤلف العرض ان تكون ظاهرة للعيان: هي اعتماده او لنقل استخدامه شخوصاً يشكلون في الواقع نماذج ذكورية شمولية تنتهي لان تكون ممثلة اصيلة لشرائح المجتمع العراقي الذكوري.. ولكن كيف تحقق لمؤلف العرض ما اراد؟
كانت زاويته الاساسية معتمدة على الصراع المستميت من اجل البقاء ولكن في ظل ظروف تفردت في قساوتها عاشها ويعيشها ليس الجزء الذكوري من المجتمع العراقي فحسب وانما جميع اطيافه ومكوناته الاساسية ولكوننا نقول في الصراع من اجل البقاء فان ذلك يقود ضرورة شخوص العرض في تعاملهم في كل شيء لا عبر شفافية الروح ومتطلباتها الروحانية كلا.. ان ذلك يتطلب تحقيق مناخات اخرى يقال في تعريفها انها متمدنة.. اذن عبر اية قناة ينظر ابطال العرض الى حياتهم، حياة المجتمع العراقي الذكوري؟ انها بلا شك قناة البطن المليئة بكل انواع النفايات والفضلات التي مرت عبر مطحنة المعدة الزغبية..
قناة العملة النقدية -الورقة- التي بوسعها توفير كل شيء. هذه القناة قد اعلنت حربا ضروسا ضد الروح وضد شفافيتها عقدت حلفا شيطانيا مع صانعي الحروب للقضاء على الاحلام واجهاض المشاريع حتى قبل صيرورتها.. اذ لا مكان في هذا الزمن في حياة المجتمع العراقي للمشاعر ولا مكان للاحلام، المساحة جاهزة لتستقبل الرمال فتصحر الروح وتملأ الشواطئ بالصخور والنتوءات محل الاحلام الرقيقة، حل ومنذ زمن طويل منذ الاجهاز على سومر والغائها من الوجود ولكن ما الذي دعاني الى التفكير في كل ذلك والخضوع لتأثيرات الصورة القاتمة هذه عليّ؟
بداية اقول: ان لهذا العرض مؤلفاً واحداً: فليس هناك نص بالمعنى الكلاسيكي له.. بدلا من ذلك نتعامل مع رصيد هائل اختزنه الاسدي في ذاكرته وله من العناصر جميعها تتألف او تتشكل من خلال تجاربه الشخصية ذاتها - وهي هنا نادرة جدا- ومن تجارب الاخرين الذين دار حولهم وداروا حوله وهي هنا وفيرة جدا فاستعار شخصيتي العرض من اقرب الدوائر التي التفت حوله. من اقرب المقربين له. وكان موفقا في هذا الاختيار. يمكن ان نتصور ان الاسدي قد وقف فوق مرتفع مكنه من النظر وبعينيه المجردتين مراقبا كيف ينطلق محرك السيارة للنقل العام.
انا واثق من انه شم رائحة الدخان، هذا الدخان الذي نقله لنا ليملأ به سماء خشبة مسرح الحمراء طوال دقائق العرض.
الان اعود فأتراجع فوراً لأقول: انه لم يقدم شخصيتين في عرضه بل شخصية واحدة شاطرا اياها الى شخصيتين متباينتين في المظهر الخارجي وسلوكياته. اعطى سمات القلب الميت والدم الاسود البارد واللوطية وانعدام الضمير لذلك الشطر الذي غالبا ما تتجلى ملامحه الحقيقية بعد منتصف كل ليلة عندما يصل تأثير ادوات الليل عليه الى اقصى مدى. عندها يتحول الى "نمر" لا رحمة في قلبه يلتهم كل من يقع امامه سواء من الامام ام من الخلف!! ولكن عند بزوغ الاشعاعات الاولى ويبدأ الضياء يرسم ملامح نهار جديد حيث تسمع اصوات احذية الجند الحقيقية التي يراها وتلك الوهمية التي تطارده ابداً؛ يعود ليتصاغر فيدخل بمحض ارادته وبخنوع شديد وجبن مشين في جلد للارنب.
هكذا الف الاسدي عرضه بشخصه الاوحد ولكنه منح لكل مشاهد نظارة من نوع خاص تمكنه من رؤيته شخصيتين اثنتين.. آه منك يا ايها الاسدي، لقد كنت بارعا في ذلك ولكن الى أي نقطة تمادى واين وصل؟.
في تقديري انه توفق في ذلك حتى ان المشاهد يقع في فخه معتقدا بأنه يرى شخصيتين ذكوريتين متناقضتين في كل شيء الا في شيء واحد وهو فصيلة الدم الذي يجري في عروقهما. مؤلف العرض نقل كل ذلك على خشبة المسرح جاعلا اياها فضاء غير متناه بالرغم من وجود ما يوحي بأن الاحداث تدور في مكان مغلق - حمام بغدادي شعبي- لا شيء، لا شيء سوى الرائحة النتنة التي كانت تفوح من افواههما، من ادوات التحميم من جلودهم ومن الجو الذي أراد له ان يكون جوا عراقيا قذرا لا يمكن بأي حال من الاحوال تقديم العون له.
فسائق -سائقا- الباص يحمل -يحملان- كل القاذورات ويفرغونها حسب الاوامر.
اما عند حلول الظلام فانهما يلجآن لافراغ شحناتهم واطلاقاتهم في الامام وفي الخلف!!.
الباص او السيارة التي يستخدمها المؤلف هي حقيقية "رمز" لحمل الاشياء، كل الاشياء. وعندما حاول تحميلها بالورود فشل في ذلك لانه لم يجد مزرعة للورود في طول العراق وعرضه.. يصدم المشاهد بهذه الحقيقة المفجعة.. لا ورود في بغداد بل قوانين وظروف تحول الانسان الى قرد وهو في احتدام الصراع من اجل تلبية احتياجات المعدة، الاهل والاقارب مقترفا كل رذيلة، انها بلا شك حالة غاية في القسوة وحتى يجبر المشاهد على البقاء في مقعده حتى نهاية العرض يحتاج المخرج الى مهارة فنية عالية، فماذا عمل المخرج لتحقيق ذلك؟
لقد استخدم الاسدي اسلوب الاداء الكوميدي الاسود الفاجع من خلاله وفر للمشاهد قدراً طيبا من التسلية ولكنه استطاع في الوقت ذاته من تمرير -تهريب- رأيه في ما يجري في عراق المجتمع الذكوري.
وهنا اذكر انه بحث عن الانثوي فيه فلم يجده حتى يفسح له مجالا في معادلته.. لذا اكتفى بتناول المجتمع الذكوري.
وقد اجهد ممثليه أيما جهد وهو يحاول الحفاظ على مشاهديه حتى نهاية العرض، حقا لقد عالجهم بقسوة شديدة. وكان اعتماده عليهم قطعيا حتى لنراه وقد اختفى وراءهما او تحت جلدهما، لا عفواً ذاب فيهما او بعبارة اخرى.. اعتلى معهما خشبة المسرح وهو يلبس طاقية الاختفاء.. نحس به ولا نراه من اللحظة الاولى للعرض وحتى نهايته ممثلاه باتا يتحملان اعباء وجوده معهما على مضض لقد كان جهدهما التمثيلي بديعا زاده بداعة وتألقا كونهما فنانين عربيين سوريين يؤديان شخصيتين عراقيتين محليتين قد يصعب على غيرهما ذلك ففي الابداع يمكن خلق النكهة الخاصة لما هو محلي عندما يقدم بعناصر محلية ايضا، تسمى اصالة، ولكن اعود فاقول كان اداؤهما جميلا في قبحه وحلو المذاق بمرارته.
كنت اتمنى على الاسدي ان يعتمد التناوب الزمني المتداخل بين الماضي والحاضر حتى النهاية ليجعل المشاهد يرسم في ذهنه الحيز الجغرافي ومكوناته والفضاء بعناصره الاساسية.
عند مشهد التابوت سلب المشاهد هذه المتعة التي اشرت لها آنفا وخرج عن اسلوبه هو في العرض ثانيا.. ربما لا يوافقني الاسدي في ذلك ولكنه سيوافقني حتما عندما اقول: انه قدم لنا حماماً بغداديا دمويا فاجعا بدأ الاعداد له منذ اندثار الزقورة السومرية.
وكان تقديمه ناجحا جدا. الحمام الذي شاهدناه لا يختلف بأي شيء عن الحمام التقليدي في حارات بغداد الشعبية.
مساحة فارغة واحواض صغيرة للماء البارد والحار ووزرات المستحمين، ليف وصابون وصدى المكان الفارغ والمغلق بانارة خافتة بسبب البخار المتصاعد والذي يملأ فضاءه تماما. أقول انه حمام تقليدي يشبه كل الحمامات في الشرق الاوسط تركي، فارسي عربي.. ولكن حال بدء العرض يبدأ المشاهد عبر براعة المخرج وواقعا تحت تأثيرها في استبدال عناصر هذا الحمام.
فأحواض الماء يتغير لونها فيصبح احمر قانيا وربما قرمزيا قد يذكرنا بلون الدم. فاحداث المسرحية تفضح حقيقة مفادها.. ان ما يجري في عروق العراقيين وشرايينهم مادة تشبه الدم في لونها ولكنها تختلف عنه بكل شيء آخر.. لذا فليس لما يجري في عروق العراقيين هذه الايام اية قيمة تذكر.
كل هذا يحس به المشاهد وشخصيتا العرض يستحمان عراة بملابس الحمام.
لم يكن العرض في تقديري بحاجة الى اكثر من ترجمة لذا أضحت لوحة الفنان علوان جبر تسير بمفردها ولكن بموازة العرض الحي.
وقد اضطررت بين الفنية والاخرى ان اصم اذني هربا من الصراخ عند التمثيل خاصة لدى الفنان فايز قزق فقد صعد بصراخاته او صياحه او اسلوب ادائه هذا بالحالة الشعورية الى السطح بينما كان لها ان تكون بعمق جارح.
ولم اتبين لدى مشاهدتي العرض من شخصية فايز كانت قد أصيبت بفقدان البصر او ان الفنان نضال يؤدي دوره كمصاب بالربو او انه مصاب بالربو حقا.
واخيرا كان الحمام دموياً صادقا في ترجمته لواقع الحال الذي يعيشه المجتمع العراقي يوما بعد يوم.
انه لا يقدم الاسدي مؤلفا ومخرجا للعرض فحسب بل يقدمه باعتباره مواطنا عراقيا اصيلا وشريفا تمزق قلبه إرباً بسبب الدمار الذي شمل العراق بكل مفاصله.. لقد وجد نفسه ملزما بأن يرفع صوته بهذه الطريقة الفنية الرائعة ليقول لصانعي الخراب وقاتلي الروح لا.. لا.. أوقفوا نزيف الدم في الشوارع.

* مسرحي عراقي يقيم في بودابست

أربع قـــصـــائـــد

عبدالكريم هداد*

وحدُكَ

وحدُكَ
كالبحرِ تبقى
تنتظرُ الأنهارَ
على حافاتِ جزيرةٍ نائية .

وحدُكَ
كطينِ الساقيةِ الغافي
بطعمِ الرشادِ
وأشواكِ أزهارِ الربيعِ الماضي .

وحدك
كغبارِ القمرِ
في أزدحامِ الظلِ الأسود.

وحدك
كالشراعِ الأزرقِ
البعيد
في لجةِ الصبرِ انتظاراً .

وحدك
كقميصِ العشقِ
مثقلاً بالنسيانَ
ورائحةِ الشمعِ المنطفئ.

وحدك
تبقى
كما أنتَ
وحدك .

على طاولة الشعر

أيها الربُ
متى أعلنُ نبوءتي
في سواد الكوفة .. ؟
وأنا توضأت بملحِ الضوء
ومؤتمن على أسرارِ الزهر..
والبحرِ..
و.....
أيها العاشقون
هذا يومي..!
أيتها الشمعة المختبئة في خثرة الدم
اشربي حزن النهر
ودمعة الغريب
ياظمئي المنحني
على طاولة الشعر..
فج الجرحِ مَسامات الفخار
وعبقت شفة اللحن بورد الخريف
تاه الدفء وإشارات المرور
وحرق الشتاء
رشفَ علبة الدخان
بحثت عن قطار لتذكرتي
أنبأني زجاج النافذة :
ان الفجر القادم
غبار وريح
وكافرة
هي المدينة تلك...!

قلة

في ما مضى أناسٌ ماتوا
وأوراقهم مزورة
قلة
شربوا قهوة العزاء .
موتى
لم يحققوا احلام الصبا
انتظروا كل العمر
ورحلوا بهدوء
وبكل هدوء
انتظر واوراقي المزورة
قلة
سيقرأون سورة الفاتحة .

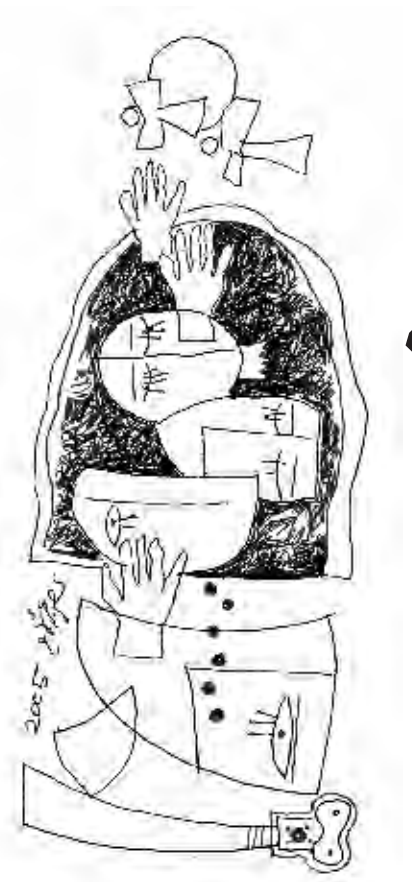

فجأة

فجأة
استيقظ من نوم الوجع
كان ثقيلاً كالحديد الصدئ
في ورشة قديمة
تمنى طلاء برطوبة الطين
زيتا
لم يخطُ على هتافات خرفة
ذلك الكذب
الذي نبتَ على عيونِ حالمة
ومازال الكذب يكذب صدقاً .
فجأة
استيقظ ، فسرقَ طفولة الماء
للحدائق العامة
ولأوراق الشعر ضحكةَ ثوب العروس
وثمة أشياء يخفيها ..
طرقَ أبوابِ البحر
لعل أغنية جديدة
يرتلها العود البغدادي
لعل السفن القادمة
تحمل رائحةَ
يشتهيها
ولعل الله ، لم ينسه .

* شاعر عراقي يقيم في السويد

من المكتبة الأجنبية

وليام بليك

تأليف :جودي كوكس

الناشر:ريدوردز. لندن

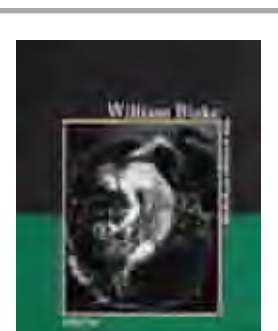

الباحثة الإنجليزية والناقدة جودي كوكس. تقدم هنا كتابا ممتعا عن حياة ويليام بليك وأعماله. وتناولت سيرته أول الأمر تلك السيرة التي تتركز في أن بليك ولد في لندن عام ١٧٥٧ وفيها مات عن عمر يناهز السبعين عام ,١٨٢٧ وكان أول شاعر رومانطيقي في انجلترا: أي قبل ووردزورث وكوليردج وقد ولد في عائلة فقيرة في لندن وظل فقيرا طيلة حياته كلها دون أن يشتكي من ذلك أو يبحث عن الثروة والجاه والغنى كما يفعل معظم الكتاب والمثقفين. ولم يسافر خارج بلاده أبدا، ولم تكن له عشيقات وإنما ظل مخلصا لامرأة واحدة هي زوجته، وكانت أمية لا تعرف القراءة والكتابة فعلمها ذلك بعد زواجهما. وعلى الرغم من أنها كانت عاجزة عن فهمه أو مشاركته لرؤاه العبقرية أو الجنونية إلا أنها أصبحت مساعدته المخلصة.

جيو سياسات البترول

تأليف :فيليب سيبيل . لوبيز

الناشر: أرمان كولان باريس ٢٠٠٦

يؤكد مؤلف هذا الكتاب فيليب سيبيل . لوبيز الباحث في المعهد الفرنسي للجيوسياسة، منذ البداية انه إذا كان هذا الارتفاع الكبير في الأسعار لم يترجم بعض نقاط الضعف في الأسواق النفطية في مواجهة تطور الطلب، فإنه يخفي رهانات كبيرة ذات طابع سياسي واستراتيجي بالدرجة الأولى، لاسيما فيما يتعلق بتأمين التزود بالنفط بالنسبة للمستهلكين الكبار، أي الولايات المتحدة الأميركية والصين. ويرى المؤلف ان مثل هذا المطلب يشوش العلاقات الدولية حيث يأتي في هذا السياق التهديد الذي يستهدف المنشآت النفطية نفسها في بلدان الانتاج كي يزيد من المخاطر على وضع هو نفسه يعاني من القلق.

اليمن .. الأرض والشعب

تأليف :سارة سيرايت

الناشر: بالاس اثين للنشر لندن

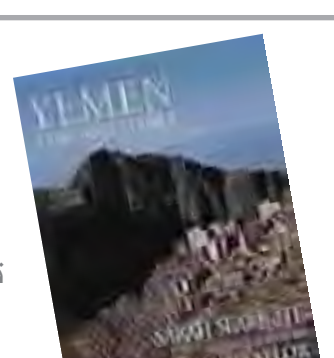

مؤلفة هذا الكتاب هي الصحافية والباحثة الانجليزية سارة سيرايت المتخصصة في شؤون اليمن خصوصا والخليج العربي عموما، وهي تقدم هنا لمحة تاريخية شاملة عن اليمن بكل جغرافيته وأرضه وشعبه. ومنذ البداية تقول ما معناه: يقع اليمن في الجنوب الأقصى لشبه الجزيرة العربية، ولكنه ليس أرضا صحراوية على عكس هذه الأخيرة. وإنما هو بلاد مخضوضرة مليئة بالحياة والأعشاب والأشجار والأراضي الخصبة.

يوميات غوبلز ١٩٤٣-١٩٤٥

تأليف :جوزيف غوبلز

الناشر: تالانديه . باريس

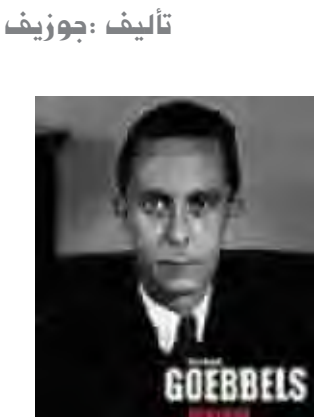

يغطي هذا الكتاب السنوات الأخيرة من حياة جوزيف غوبلز، ويتم نشرها باللغة الفرنسية مع تعليقات وتوضيحات بيير ايكبوري، الأستاذ في جامعة ستراسبورغ، وأحد أكبر الأخصائيين الفرنسيين بتاريخ الحرب العالمية الثانية. وقد اعتبر المعلقون المختصون أن نشر هذه اليوميات يشكل ؟حدثاً؟ حقيقياً.